الدراسات السوسيولوجية ... بين النقد والوصم
الإقصاء يلقي بظلاله

تنتظم التصورات الاجتماعية والممارسات لتصنع مختلف صور الواقع ، فيبدو مبهما أحيانا ، وقاتما أحيانا أخرى ، ومبعثرا أو متناسقا أو... وخلف كل ذلك يقف الإنسان بكل ما يملك من أفكار وقيم ومعايير ...، فعلى قدر تصدع أفكاره يأتي الواقع مبعثرا ، وعلى قدر انتظام سلوكه يأتي الواقع مرتبا ، وعلى قدر سماحته يأتي الواقع جميلا يملؤه الحنو والعذوبة ...فهل يأتي يوم تنتظم الأقلام ليصير الواقع بيد العلماء يصنعونه ويصنعهم ، يبدعون في فضاءاتهوينتقدون ويصوّبون مثالبه ويرتقون في مدارجه نحو الأفق الرحب ؟ ، فالمجتمع الذي يفتقد إلى ثقافة التساؤل وتذوي فيه ملكة النقد، وتخفت فيه ومضات التفكير المبدع هو مجتمع أشبه بالميت - وعلى حد تعبير **د.سفيان ساسي**- .... فحينما يغيب النقد ويصادر الفكر الخلاق يشعر العقل بحالة من الدونية تجاه ما يجابهه من مشكلات، ويغلب عليه الميل إلى استجداء الحلول الجاهزة، ويصبح لقمة سائغة تتقاذفه أفكار الآخر (الجاهزة)، وهكذا يغتال العقل.

ليس من قبيل الكربلائيات ، بل من باب الموضوعية القول أن للباحثين في هذا الفضاء الأكاديمي من الجزائر ومصر والعراق وليبيا طرائق متعددة يتواشجون فيما بينهم حيال وطأة الوصم الاجتماعي الذي منيت به الدراسات السوسيولوجية ، لكشف ثم درء منابع هذا الوصم ، إذ يختلفون أحيانا وتتمايز اتجاهاتهم الفكرية ... لكنهم يتقاطعون في رصد الواقع وتتبع مآلاته والتعبير عنه ، بعبارة أخرى يلتقون كباحثين لاعتقال اللحظات الهاربة ، التي تضمنتها الممارسات البحثية ، ومن وحي تجاربهم الخاصة وفي قالب نقدي صاغوا بأنين ضمائرهم أنماط الوصم الاجتماعي الذي منيت به الدراسات السوسيولوجية، والتي بدت كما يلي:

1 - الهوية الغربية أو الولادة العليلة للدراسات السوسيولوجية

من وحي تجربتها الطويلة والحافلة في مجال البحث والتدريس الجامعي، كتبت **أ.د.نادية عيشور** قائلة بأن الدراسات السوسيولوجية تشهد قطيعة مع التحديث الذي يرنو إليه كل

العالم، حيث ظلت أدواتها المنهجية قديمة، ومواضيعها تجتر نفسها ، وهو ما ينم عن مدى ضيق الآفاق بكل أبعادها، وكأن الأمر يتعلق بوجود **صبغيات وراثية في جهازنا الثقافي** تنتقل من جيل إلى جيل وتحصن نفسها بنفسها ضد كل جديد ..ونفس الرأي يؤيده **د.أحمد زايد** – بقامته الفارعة في علم الاجتماع وصيته الذائع في البحث العلمي - بتعبيره عن الواقع البحثي في علم الاجتماع وفي جل الدول العربية بأنه يميل إلى **الأنماط التقليدية الجامدة أو الحداثية المشوهة**، إذ أن هذه العلوم تستند إلى نمطين متناقضين ، إما علوم في قوالب أبوية جامدة أو منتجات بحثية مستمدة من ثقافة أطراف العالم الرأسمالي ، ونفس الرأي يؤيده **د.سفيان ساسي** بحديثه عن الجهود التنظيرية التي كُرست للبحث عن رؤية سوسيولوجية لتحقيق الفعل التنموي، غير أن هذا التنظير ظل في معظمه يدور في فلك التوجهات النظرية للمدارس الغربية الكبرى التي تبلورت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الماضيين، مما جعل أغلب النظريات الاجتماعية –إن لم نقل كلها- المدرسة في الجامعات العربية ذات مسحة غربية مرتبطة أشد الارتباط بالتاريخ الثقافي للمجتمعات الغربية ومعبرة عن خصوصياتها ومشكلاتها الفكرية، هذه النظريات تتعرض في مهدها إلى انتقادات حادة بالنظر لعدم قدرتها على استيعاب التغيرات التي يعج بها الواقع الاجتماعي الغربي فيما يتم تداول هذه النظريات على أنها حقائق ثابتة، وتوارثتها أجيال الدارسين دون تغيير أو فحص أو مراجعة، ودون مراعاة الفوارق بين المجتمعات المستهدفة، من حيث الشروط البنيوية، والخبرات التاريخية الخاصة، والعوائق المحلية أمام استيعاب وتبني النظريات والتفسيرات المستوردة من بيئات اجتماعية وثقافية مغايرة، أي أن الدراسات السوسيولوجية لا تقدم الجديد ، والسبب في ذلك هو أن هذا العلم لم يولد من رحم هذا المجتمع، ولم تصلب عوده الثقافة المحلية، وهو ما ذهب إليه **د.سليم درنوني**، وأيده **د. نبيل عمران موسى الخالدي** من **جامعة القادسية** بقوله بأن تطور علم الاجتماع في العراق لم يختلف كثيراً عن الدول النامية فموضوعه حديث بالنسبة لجميع هذه الدول وليس له جذور قومية عميقة ويجدر الذكر هنا بان هذا العلم في كثير من الدول النامية ومن بينها العراق كان قد تأثر بعلم الاجتماع الأمريكي في النظرية والمنهج ويبدو هذا واضحاً من خلال عناوين المقررات في قسم الاجتماع ونشرات هيئة التدريس التي تشير في اغلب الاحيان الى مراجع أمريكية .

2 -أزمة الإنتاج المعرفي :

يشير **د. أحمد موسى بدوي** إلى أن الدراسات السوسيولوجية في

البلدان العربية لم تستطع سد الفجوة المعرفية بينها وبين العالم المتقدم ، ويعزي ذلك إلى الضعف في قدرات التفكير النظري بسبب العديد من المشكلات البنيوية ، حيث ينتهي الباحث إلى أن الأزمة تكمن في إنتاج الأطر النظرية ، إذ أن فقدان الوعي بالمستجدات النظرية في علم الاجتماع مكّن النظريات الكلاسيكية المؤسسة لعلم الاجتماع من الحصول على مكانة معتبرة داخل البحوث الا ٔكاديمية ، ويبرز الخلل هنا حين يتم التعامل معها على أنها نظريات معاصرة .

من جهة أخرى فإن الضعف الابستمولوجي في الدراسات السوسيولوجية

يكمن أساسا في الإطار النظري ، كما أن غالبية البحوث تتعامل مع الدراسات السابقة بطريقة الاختلاف المتعسف ، وكأن عملية التحليل النظري تعني نفي هذه الدراسات من الوجود ، وكأن الباحث يريد أن يبدأ من حيث بدأ الآخرون لا من حيث ينتهون .

3 - فوبيا التنظير وعصاب الرقمنة

للغة الكتابة السوسيولوجية أثر بالغ في استيعاب الأهداف التي يرومها الباحثون ، فعلاوة على كونها حاملة الأفكار فهي أيضا طبق التقديم الذي يغري القارئ ، ويمنحه متعة تذوق المعارف والاستمتاع بها ، وفي هذا الصدد يفرد **د.سفيان ساسي** مقالا بعنوان " **أزمة الدراسات السوسيولوجية في الجامعات العربية بين لغة الرقم ولغة الخطاب"** حيث ينعت هذه الدراسات بأنها مفعمة برقمنة الظواهر الاجتماعية وقطع الصلة مع فعل التأمل والتنظير والتأويل، التي بالإمكان أن يضيفها العقل السوسيولوجي على موضوعه ، حيث يطغى التحليل الإحصائي والمعادلات الرياضية على التحليل السوسيولوجي الذي يفسر السلوك الإنساني الصانع للظاهرة ، فيما يبدي **د. أحمد موسى بدوي** استيائه من المشكلات اللغوية لدى البحوث السوسيولوجية ، إذ أن هذه الكتابة العلمية تتصف في كثير من الأحيان بالركاكة ، وهو ما ينم عن قصور في تطوير المهارات اللغوية لدى الباحثين ، كما ويظهر ذلك جليا إزاء عجز الباحث عن تفسير المعطيات التي استقاها من الميدان في ضوء الإطار

التصوري لبحثه ، ويزداد الأمر تعقيدا في حالة عدم امتلاك الباحث للأدوات النظرية الكافية .

4 - مستويات الباحثين

يستمد البحث السوسيولوجي وصمه من مستوى باحثيه ، الذين تصفهم **د.نادية عيشور** بأنهم التلاميذ ذوو المعدلات المتدنية في شهادة البكالوريا ، وكذا الطلبة الذين تم إقصاؤهم ، أو حققوا فشلا في تخصصات أخرى ، أو المعيدون ..الأمر الذي لا يُبقي للمجتهدين وذوي الميول نحو علم الاجتماع غير تلك التي يعيرهم بها الكثيرون ممن لم يلمسوا صدى لهم في المجتمع في مواجهة مختلف الآفات الاجتماعية ، ..هذا إلى جانب فئات من طراز آخر وهم :

- **الباحثون الذين يحسبون على التيار اللائكي/العلماني**
- **الباحثون الذين يحسبون على التيار الإسلامي**
- **الباحثون المتحفظون الذين لا لون لهم ولا رائحة**

ولكل منهم نمط تفكير ونمط إنتاج .

من جهة أخرى يرى **د.سليم درنوني** بأن مصدر الحيف والازدراء للعلوم الاجتماعية يعود إلى تمييز بعض الدراسات الآتية من الغرب الرأسمالي في مقابل الطروحات ذات التوجه الماركسي أو اليسارية ، من خلال هيمنة عدد ممن المثقفين الذين كان موردهم الأول الكتابات المتوفرة باللغة الفرنسية .

5 -الأطر المعرفية والواقع الاجتماعي

تحت طائلة الوصم الاجتماعي ، وفي حضرة الصمت ...يتحول الباحث السوسيولوجي إلى مجرد لاعب في ملعب بلا جمهور ، قد يتقن ويسجل الأهداف ويصل إلى النتائج ، لكن لا جمهور يرى أو يقرأ النتيجة ...بلا حفاوة ، بلا انتقاد ، بلا منافسة..يتحول محراب الباحثين وفضاءات الإبداع وجلسات المناقشات والسجالات الفكرية إلى محاضر تحتويها الرفوف ويستوعبها الإهمال في أقسى صوره .

إذ خلف كل سطر نبرة حزن تعتري الباحثين ، لأن الأصل في الدراسات السوسيولوجية الجادة أنها تشكل أطرا معرفية تحتوي مختلف الظواهر ، وتعالج الأزمات بعد أن تكشف عن مواطن الداء ، بيد أن الإهمال الاجتماعي لمنتجات الباحثين ظل حائلا يعيق الاستفادة من خبراتهم في كل المجالات الاجتماعية والخطط التنموية .

وفي هذا السياق يأتي مقال **أ.د. حسين سالم مرجين** بشكل مميز ومختلف عن مسألة التغير الاجتماعي في العالم العربي في متن تطبيقات الويب 2.0إذ كتب يقول بأن موضوع تطبيقات الويب 2.0 التفاعلية وعلاقتها بالتغيير السيوسولوجي، من الموضوعات التي تندرج ضمن اهتمامات علم الاجتماع ،الأمر يحتاج إلى وقفة للتدبر حول أدوار ووظائف علم الاجتماع في الجامعات العربية – والليبية على وجه الخصوص، ومن جهة أخرى فإن عملية ممارسة التصفح والتفاعل مع المواقع والصفحات على الويب ينتج عنها معارف لا يمكن استيعابها وفهمها إلا من خلال الفكر بالوتالي تصبح المسافة بين الممارسة والفكر أكثر قرباً

وفي ظل تسارع التراكم المعرفي بشكل غير مسبوق ، بما يفوق قدرة النظريات على التحليل والتفسير يرسم **د.سليم درنوني** خارطة التحديات المستقبلية :

التحدي الأول :أن المعرفة الجديدة تفرز قضايا ومشكلات جديدة وتغيرات مستمرة ومتسارعة تمس القيم الإنسانية والهويات والمواطنة قد لا تكون في النطاق التقليدي للعلوم الإنسانية لكنها تمس التجربة الإنسانية عموما والتي هي محل اهتمام العلوم الاجتماعية . مما يتوجب إيجادحالة من التصالح والتعايش الإيجابي بين المجتمع وهذه المعارف .

التحدي الثاني : ويكمن في منظومة القيود الإدارية ، التي لا تراعي حاجة مختلف العلوم للتكامل فيما بينها في ظل المستجدات المعرفية الرهيبة التي ما فتئت تفرز تخصصات بينية تستدعي التعاون بين مختلف حقول المعرفة .

التحدي الثالث:وهو اعتبار العلوم الإنسانية تنتمي إلى قبيل الترف الفكري والمتعة المعرفية بدلا عن العلوم الرصينة التي تسعى بمختلف تخصصاتها ومناهجها إلى الخوض في مختلف قضايا المجتمع .

● من جهة أخرى تضمن العدد مقالات أخرى تنوعت مواضيعها بتنوع ميول الباحثين ، حيث تستعرض **د.فتيحة طويل** مختلف أفكار الوظيفية الجديدة كإطار معرفي ، وكيفية عمل المجتمعات بوجود المؤسسات والأعراف ، حيث أرادت الوصول إلى فهم أكمل لعمل النسق في وجود متغيرات الواقع المعقد ، كالقرارات المتناقضة والتفاعلات والأسباب والنتائج و..والعواقب غير المتوقعة لمختلف الأفعال، الأمر الذي يتطلب تحليل هذا الواقع وفق رؤية متعددة الأبعاد ، تستند إلى التكامل بين مستويات التحليل بعيد المدى ومستويات التحليل قصير المدى.

● وفي مقالته عن مقاربة حضارية بديلة ، يستعرض **د.أحمد لعربي** مشكلة الحضارة لدى مالك بن نبي نموذجا ، حيث أن مالك بن نبي وإن لم يخصص لعلم الاجتماع اهتماما مفردا، فقد جاء حديثه عن موضوعه وقضاياه في شكل توجيهات وآراء عامة، تناقش السياسة التنظيمية للدولة في مرحلة الاستقلال، كما أن المفكر لم ينكب على دراسة الإشكالات النظرية والمنهجية، ولا حتى المذهبية التي أثيرت حول هذا الحقل المعرفي، وقد خلص في النهاية إلى أن مالك بن نبي يجنح للقيم والمعايير ويوليها الأهمية القصوى في سبيل تفسير الأزمة الاجتماعية ، إذ أنه ينأى عن النزعة الوضعية بتقسيمه لعالم الأفكار إلى أفكار مطبوعة وأفكار مصنوعة ، وهي طريقة ذاتية يزاوج بها المقدس بالعملي .

● بينما تجنح الباحثتان **د.زرفة بولقواس** و **د.ميمونة مناصرية** إلى الحديث عن الممارسة المهنية للتدريس في ظل الأخلاق العالية والمواصفات المطلوبة ، حيث هدفتا إلى تحليل أخلاقيات مهنة التدريس الجامعي، وذلك بالوقوف على أهمية القيم الأخلاقية بشكل عام، وأخلاقيات مهنة التدريس الجامعي بشكل خاص، فالأخلاقيات من الركائز التي تستند إليها المنظمات بما فيها الجامعة في تحقيق أهدافها، فالقوانين والأنظمة موجودة ، لكن يبقى التطبيق خاضع لقدرة الفرد على التميز بين الإلزام والالتزام.

- ما الأخلاقيات المطلوبة من الأستاذ ترسيخها عن طريق التدريس؟
- ما الأخلاقيات المطلوبة من الأستاذ ترسيخها عن طريق الإشراف؟

- ما الأخلاقيات المطلوبة من الأستاذ ترسيخها عن طريق البحث؟

حيث تخلص الباحثتان إلى أنأهمية الأخلاق تزداد في الجامعة، لأن الأستاذ الجامعي يجب أن يكون قدوة لطلابه، ومسؤولا عن تعزيز الجانب الأخلاقي لديهم، ونموذجا إنسانيا راقيا في التعامل عبر مختلف الوظائف المترابطة في مهنته، و التي تستلزم منه ترسيخها عبر روابط علمية وإنسانية، كتلك التي تربطه بخالقه و أسرته. فأخلاقيات مهنة التدريس في الجامعة الجزائرية تحتاج إلى إيقاظها من روحها، لأن متطلبات الحياة العصرية تغيرت وأصبحت تتطلب بناء شخصية سوية متكاملة في مجالات تخصصها.

- وبعيدا عن لغة التشاؤم تستعرض **دسليمة حفيظي** مواصفات القائد الناجح ودوره في تحقيق الإبداع الإداري في المنظمة ، وفيما اتسع مفهوم إدارة الموارد البشرية ليشمل أنشطة رئيسية متعددة يأتي على رأسها تحليل وتوصيف الوظائف، تخطيط الموارد البشرية، جذب واستقطاب الموارد البشرية، تنمية وتدريب الموارد البشرية. وبغية تطوير نظريات العقد الاجتماعي الحديثة كتبت **د.نوال بركات** و**د.مصطفى فؤاد عبيد** من الجامعة الأمريكية بالقاهرة مقالا يشرح كيفية قياس أصوات الناخبين بحسب العديد من العوامل (الفئة العمرية ، الحالة الاجتماعية ، عدد الأبناء،...)، وفق أوزان يتم تحديدها بواسطة أدوات رياضية إحصائية فعالة تساهم في وضع حلول جذرية للعديد من المسائل العلمية المعقدة وتؤسس لإجراء العديد من البحوث العلمية المتخصصة الهادفة لتحليل الظواهر واستنباط العلاقات والارتباطات بين العوامل المؤثرة فيها، والتي تمتد لتشمل جميع مجالات العلوم الإنسانية والطبيعية، النظرية والتطبيقية، إذبهذه الأدوات يمكن إيجاد الحلول الإبداعية لتلك المسألة لتحديد تلك العوامل وتقييم **"أوزان"** كل منها وتجميعها معا لتنتج "الوزن الانتخابي الشامل" والعادل لكل شخص بحيث يكون منصفا لكل المجتمع.

- وحرصا منهما على أهمية ثقافة المنظمة استعرض الباحثان **أ.د عبد الرحمان برقوق** و**د.هدى درنوني** نماذج عالمية لمؤسسات كان شغلها الشاغل هو الاعتناء والأخذ بثقافة المنظمة كمرتكز أساسي لتسيير شؤونها، وذلك بغية بغية إبراز أهمية ودور الثقافة

التنظيمية في تبوء المكانة التي وصلت إليها هذه المؤسسات، وكذا محاولة منها لإعطاء العبرة والقدوة لمؤسساتنا الوطنية.

ولأنه ربما من المستحيل أن توجد موضوعية ابستيمولوجية تامة ، فالبحث الفعلي يتم دائما من وجهة نظر ما ، فقد حاول صائغو هذا العدد قراءة مختلف المسائل التي تشكل وصما للدراسات السوسيولوجية من وجهات نظر متعددة ومختلفة، وحاولوا انتقادها من ضوء العوامل المحيطة والأسباب المتضمنة بالداخل وكل ما يفضي إلى الإقصاء من المشاركة في مسيرة التنمية الاجتماعية هذا إضافة إلى مقالات أخرى منوعة وهامة بأهمية المواضيع التي تطرحها، فشكرا لمن ساهم وشكرا لمن فكر في المساهمة.

رئيسة التحرير

د. ميمونة مناصرية